٣ - الشاعر الذى قتل وحرقت جثته

لسان الدين بن الخطيب

بقلم الاستاذ الجليل الشيخ احمد السكندرى

من أمثلة ماتقدم فى كتابة لسان الدين .... قوله فى مفتتح رسالة كتب بها على لسان سلطانه محمد ، إلى شيخ الموحدين بتونس : « ابن تفراجين » يخبره عن غدر أخيه إسماعيل :

« من أمير المسلمين أيده الله ونصره ، وأعلى أمره وأظهره ، إلى ولينا فى الله تعالى الذى له القدم الرفيع المناصب ، والمجد السامى الذوائب ، والسياسة التى أخبارها سمر الركبان وحدو الركائب ، الشيخ الجليل الكبير الشهير الخطير الهمام الأمضى الرفيع الأعلى ، الأمجد الأوحد ، الأسعد الأصمد ، الأوفى الظاهر الطاهر ، الفاضل الباسل ، الأرضى الأنقى ، المعظم الموقر المبرر ، علم الأعلام ، سلالة أكابر أصحاب الامام ، معيد دولة التوحيد إلى الانتظام ، إلى محمد عبدالله . . الخ »

وقوله على لسان سلطانه يخاطب سلطان فاس ، وقد أرسل إليه ولده الذى خلفه بفاس:

« المقام الذى تقلد نافلة الفضل شفعا ، وجود صورة الكمال أفراداً وجمعاً ، واستولى وجمع بين المنح والتهنئة بالفتح فأحرز أصلا وفرعا ، واستحق الشكر عقلا وشرعا ، وأغرى أيدى جوده بالقصد الذى هو حظ وليه من وجوده ، فأثار من جيش اللقاء نقعاً ، ووسط به جمعاً ، مقام محل أخينا الذى أقلام مقاصده ذرية بحسن التوقيع ، وعيون فضله مذكاة لأحكام الصنيع ، وعذبات فخره تهفو بذروة المنيع ، ومكارمه تتفنن فيها مذاهب التنويع ، أبقاه الله تعالى وألسن فضله ناطقة ، وأقيسة سعده صادقة ، وألويته بالنصر خافقة ، وبضائع مكارمه فى أسواق البر نافقة ، وعصائب التوفيق لركائب أغراضه موافقة السلطان . . . الخ »

(٢) توخيه فى كتابته إجزال اللفظ وتفخيم المعنى ، وربؤه بقلمه عن الحضيض الذى أسفت إليه أقلام كتاب المصريين من التبذل فى استعمال بعض العامى والأعجمى للتوصل إلى نكتة أو تورية أو جناس ، ترى ذلك فى كثير من رسائله ومؤلفاته ، كقوله : من رسالة يستنجد بها أهل المغرب لنصرة الأندلس ويحثهم فيها على الجهاد :

« أيها الناس ! رحمكم الله تعالى ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو قصمه الله

ساحتهم ، ورام الكفر ـ خذله الله ـ استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم ، ومد الصليب ذراعيه إليهم ، وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهاد الجهاد ! فقد يعين الجار الجار ، فقد قرر الشرع حقه وبين ، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه . »

وقوله من رسالة على لسان سلطانه الأول إلى رسول الله :

« . . . وإنى لما عاقنى عن زيارتك العوائق ، وإن كان شغلى عنك بك ، وعدتنى الأعداء عن وصل سببى بسببك ، أصبحت بين بحر تتلاطم أمواجه ، وعدو تتكاثف أفواجه ، وحجب الشمس عند الظهيرة عجاجه فى طائفة من المؤمنين بك ، وطنوا على الصبر نفوسهم ، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم ، ورفعوا إلى مصارختك رءوسهم ، واستعذبوا فى مرضاة الله ومرضاتك بوسهم ، يطيرون من هيمة إلى أخرى ، ويلتفتون والمخاوف عن يمنى ويسرى ، ويقارعون ـ وهم الفئة القليلة ـ جموعاً كجموع قيصر وكسرى ، لا يبلغون من عدوهم الذر عند انتشاره ، عشر معشاره ، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا ، لأن تكون كلمة الله هى العليا ، فياله من صوت مروع ، وصريخ إلا منك ممنوع ، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع ، وصيحة حمر الحواصل تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل . . . الخ »

(٣) قلة تكلفه للمحسنات البديعية ، ومراعاة القصد فيها بالاضافة إلى كتاب المصريين فى زمانه ، وإن راعاها فى الاستعارة والتشبيه فلا يخرج منها إلا ظافراً بالاجادة مالكا ناصية الابداع والاختراع ، وإن راعاها فى التورية والتوجيه ، قصر فيها باعه ، وقل اضطلاعه ، وغث اصطناعه ، إذ ليس وراء أقلام المصريين للتورية غاية ، ولا لرياضتهم بها نهاية .

ترى ذلك مثبتاً فى رسائله وتراجمه لأهل الفضل والأدب ، ومن أمثلة ذلك قوله من رسالة كتبها على لسان سلطانه إلى رسول الله يقص فيها نبأ بلاد فتحها من بلاد العدو ، ومنها بلده الجزيرة الخضراء ، حيث يقول :

« . . . وأما خندقها فصخر مجلوب ، وسور مقلوب ، فصدقها المسلمون القتال بحسب حملها من نفوسهم ، واقتران اغتصابها ببوسهم ، وأفول شموسهم ، فرشقوها من النبال بظلال تحجب الشمس فلا يشرق سناها ، وعرجوا فى المراقى البعيدة لفرعون مبناها » .

ومنها قوله فيها يصف فتح المسلمين لحصن منيع : « فأحاطوا به إحاطة القلادة بالجيد ، وأذلوا عزته بعزة ذى العرش المجيد ، وخفقت بها الرايات يسمها وسمك ، ويلوح فى صفحاتها اسم الله تعالى واسمك ، فلا ترى إلا نفوساً تتزاحم على مورد الشهادة أسرابها ، وليوثا يصدق فى الله ضرابها ، وأرسل الله عليها رجزاً اسرائيلياً من جراد السهام ، تشذ آياته عن الأفهام ،

وسدد إلى الجبل النفوس القابلة للالهام ، من بعد الاستغلاق والاستبهام ، وقد عيت جوارح صخوره فى قنائص الهدام ، وأعيا صعبه على الجيش اللهام ، فأخذ مسائف النقض والنقب ، ورعا فوق أهله الصقب ، ونصبت المعارج والمراقى ، وفزعت المناكب والتراقى ، واغتنم الصادقون مع الله الحظ الباقى ، وقال الشهيد السابق : يافوز استباقى ، ودخل البلد فالتحم السيف ، واستلب البخت والزيف ، ثم استخلصت القصبة ،فعلت أعلامك فى أبراجها المشيدة، وظفر ناشد دينك منها بالنشيدة ،وشكر الله تعالى فى قصيدها مساعى النصائح الرشيدة ، وعمل مايرضيك يارسول الله فى سد ثلمها ، وصون مستلمها ، ومداواة ألمها ، حرصاً على الاقتداء فى مثلها بأعمالك، والاهتداء بمشكاة كمالك ، ورتب فيها الحماة تسجو العدو، وتصل فى مرضاة الله ومرضاتك برواحها الغدو ..... ألخ »

وقوله فى رسالة كتب بها إلى الرئيس عميد مراكش ، عامر بن محمد الهنتانى ، وقد أزمع الجواز إليه من الأندلس بعد أبيات صدرها بها (هنتانة جبل قرب مراكش) :

« لم يكن همى ـ أبقاك الله ـ مع فراغ البلاد وإسعاف الآمال ، ومساعدة الأيام والليال ، ذ الشمل جميع ، والزمان كله ربيع ، والدهر مطيع سميع — إلا زيارتك فى جبلك الذى يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان، وأن أرى الأفق الذى طلعت منه الهداية ، وكانت إليه العودة ومنه البداية ، فلما حم الواقع ، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع، وأصبحت ديار الأندلس وهى البلاقع ، وحسنت من استدعائك إياى المواقع ، قوى العزم وإن لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على السفر بسبيلك فألفيته خفيفاً ، والتمست الاذن حتى لاترى فى قبلة السداد تحريفاً ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند للعزم مقدوح ، والله تعالى يحقق السول ، ويسهل بمنوى الأمائل المنول . ويهيىء من قبل هنتاتة القبول بفضله »

(٤) مزج كتابته الأدبية بأقيسة الفقهاء والعلماء ، لغلبة روح الفقه وعلوم الدين على أهل المغرب ، حتى كان من فخر الوزير والقائد أن يلقب بالفقيه ، وظهر أثره بينا فى كتابة متأخريهم كلسان الدين بن الخطيب وأهل عصره ،وجرهم هذا الروح أيضاً إلى الاكثار فى كلامهم من ذكر مصطلحات الفقه والعلوم كما رأيت فى الرسالة الآنفة ، وكما ترى فيما يأتى من قوله .

(٥) ومنها استعماله فى كثير من رسائله الأدبية أساليب الفقهاء والعلماء وأقيستهم وطرق تعليمهم، مما تتجافى عنه رسائل المتقدمين من بلغاء الأندلس، كابن شهيد، والمصحفى، وابن زيدون ، وابن المطرف بن عميرة ، وذلك أنهم وإن زاولوا الفقه والعلوم كانوا يقرأون ويكتبون من كتب الفقه والعلوم ماكانت عبارته غضة الأساليب ، قريبة الشبه بكتب الأدب البليغة ، لم تتسرب بعد إليها الأقيسة المنطقية والتعريفات العلمية .. وابن الخطيب نشأ فى عصور متأخرة كانت فيها العلوم قد اصطبغت بصبغة منطقية جدلية وأصبحت ذات رسوم وصور محدودة

فى الشرح والتعليل ، وهو قد عانى التأليف والتدريس فى علوم شتى وطال عهده فيها ، فسرت عدوى الصناعة التأليفية العلمية إلى صناعة التنميق والتدبيج الأدبى الذى أساسه الاستعارة والتشبيه ، وحسن التعليل ، وترادف الجمل ، ومادته الغالبة عليه الخيال المؤثر فى النفس بالتحسين والتهجين ، لا شرح الحقائق العلمية كما هى عليه ، وقلما تتهيأ لانسان طبيعتان وملكتان تستقل إحداهما عن الأخرى استقلالا تاما.

ومن أمثلة ذلك فى كتابته قوله فى رسالة خاطب بها الرئيس أبا عبدالله بن مرزوق :

« بماذا أخاطب تلك الجلالة ، فيتيسر الخطاب وتحصل الدلالة ، أبسيدى ويشركنى فيه ، من قال لاإله إلا الله بفيه ، أو بروح حياتى وماهية ذاتى ، وذخر الكبير الكثير ، لا بل ذلك الأثير ، وهو تضيق على الولد والأهل ، وتعدى المراتب المحدودة من الجهل ، فلم يبق إلا الاشارة الخارجة عن وظائف اللسان ، وهى بعض دلالات الانسان ، أخذت الأكسير ، وجبرت الكسير . . . »

إلى أن قال فيها :

« . . . وليعلم سيدى أن النفس طماعة جماعة ، وسراب آمالها بحاره لماعة ، فلا تفيق من كد ، ولا تقف عند حد ، سيما إذا لم يهذبها السلوك والتجريد ، ولم يسر منها فى عالم الغيب البريد ، ولا تجلت لها السعادة التى يجذب بها المراد ، ويشمر لها المريد ، وقد مثلت الآن خصما ، يوسع ظهر استظهارى بالتسليم قصما ، ويقول : المال عديلى عند القيمة ، وطبيبى فى الأحوال السقيمة ، وهو نتيجة كدى عند الأقيسة العقيمة .... الخ »

وقوله فى آخر رسالة يخاطب بها أحد وزراء المغرب الأقصى مثنياً عليه ، وداعياً له ومهنئا بابلاله من مرض :

« . . . ولو تقدمت لم يضرب إلا بك المثل ، ولم يقع إلا على سننك الاجماع المنعقد على آدابك بالعمل ، والمملوك لما شام مالكه وبرق العافية ، وتدرع بالألطاف الخافية ، كتب مبشراً بالهناء ، ومذيعاً مايجب من الحمد والثناء ، وشاكراً ماله بوجوده من الاعتناء ، فقد بادر ركن الدين بالبناء ، وأبقى الستر والمنة على الآباء والأبناء ، فنسأل الله تعالى أن يمنع منك تأثير الملوك ، ووسطى السلوك ، وسلالة أرباب المقامات والسلوك ، ويبقيك وحصة الصحة وافرة ، وغرة العزة القعساء سافرة ، وغادة السعادة غير نافرة ، وكتيبة الأمل فى مقامك السعيد غائمة ظافرة ، مازحفت للصباح شهب المواكب ، وتفتحت بشط الحجرة زهر الكواكب والسلام . »

وقوله من رسالة : « وقد أصبحت سعادتى عن سعادتك فرعاً ، فوجب النصح طبعاً وشرعاً . . الخ »

(٦) ـ ومنها التلويح إلى اصطلاحات العلوم والصناعات المختلفة المسمى عند البديعيين

بالتوجيه، وعلة الاستكثار منه ماقدمناه آنفاً، مضافاً إلى التنويه من الكاتب بسعة محصوله، وكثرة اطلاعه، ورسوخ قدمه فى علوم كثيرة، وترى ذلك مثبتاً فى كل رسائله، حتى ليصح القول بأنه لايخلو رسالة ولا ترجمة لفاضل منه، ولعله قد استعاض به عن التورية الكثيرة الورود فى كتابة معاصريه من المشارقة، لاعتياص سبك التورية على أهل المغرب فى قوالب، باهرة البدع، رائعة الصنع.

ومن أمثلة ذلك ـ فوق مارأيت فيما أوردنا عليك ـ قوله فى ترجمة «فاضل»:

«توارث كل جلالة، لا عن كلالة، وجمع فى العلم والحسب، بين الموروث والمكتسب»

وقوله: «سيدى الذى هو فضل جنسه، ومزيد يومه وأمسه».

وقوله: «... فلولا العذر الذى تأكدت ضرورته، والمانع الذى ربما تقررت لديكم صورته، أول مشافه بالهناء، ومصارفه لهذا الاعتناء، بنقود الحمد والثناء»

(٧) ومنها: محاكاته للمشارقة فى افتتاح بعض الرسائل الديوانية، وذلك فى ترتيب عناصر الديباجة ـ لافى ألفاظها وألقابها ـ وإن كان كثيراً مايلقب نفسه فيها باسم المملوك على عادة المشارقة، ويلقب المرسل إليه بلقب المجلس، كقوله: «.. ومنه نسأل أن يديم إمام المجلس العلمى محروساً من النوائب، مبلغ الآمال والمآرب، والمملوك قد قرر شأنه فى إسعاف المقاصد المأمولة، من الشفاعة إليكم، والتحسب فى هذه الابواب عليكم الخ ...»

(٨) ومنها ابتداء أكثر رسائله بقصائد أو مقطعات، وقد يضمنها الكثير من الأبيات الشهيرة، من غير أن يعزوها إلى أربابها، وقد يأتى بمقطعات غير شهيرة ولا يعزوها، فلا يعرف إن كانت له أو لغيره (١).

احمد السكندرى

حيرة الادب المصرى

(بقية المنشور على الصفحة رقم ١١٨٧)

وعلى الجملة، فانك لو تصفحت هذا الأدب المصرى القائم، لرأيته موزعا بين حياة فى الجزيرة لعصر الجاهلية وصدر الاسلام، وبين حياة فى بغداد أو الأندلس، فيما يلى ذلك العصر، وبين حياة فى لندن أو برلين أو باريس أو أوروبا أو موسكو. ولكن أين هذا الأديب الذى يعيش فى مصر ويصور عواطفه المصرية التى يلهمها ما ينبغى أن يلهم المصرى من عواطف وأحساس؟

الواقع أن الأدب المصرى من هذا فى أشد الحيرة والاضطراب. ولعلنا راجعون إلى هذا البحث فى وقت قريب.

عبد العزيز البشرى

(١) راجع الجزء الرابع من نفح الطيب.